"مسودة في الرد على المنتصر للإشراك بجهالة"

أما بعد حمد الله بما هو أهله.

فهذه مسودة في رد شبه من أباح الإشراك وانتصر لأهله بما لا مقنع فيه، وجعل يكثر من ذكر الأسماء مع أن الرجال يعرفون بالحق، وليس الحق يعرف بهم، وبالضرورة يعلم كل ذي نهية أن الميزان الأكبر بعد ضرورة العقل كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام، فعليهما يعرض كل قول، وإليهما يتحاكم فيما دق أو جلّ، ولنبدأ بما قصدنا إليه من ذلك فأقول:

أما احتجاجه بمعجزات الأنبياء وكرامات الأولياء على جواز الاستغاثة والاستعانة وعلى أن للناس ولاية تكوينية وقدرة خارقة فإغفال منه وجهالة، إذ كانت المعجزات خاصة لا عامة، وإنما أذن الله بها لرسله على وفق حكمته، ألا ترى أن كثيرا من الأنبياء لم يملكوا إحياء الموتى بإذن الله كعيسى بن مريم عليه السلام؟ فهذا واضح.

وهذا محمد خير الخلق صلى الله عليه وسلم لم يكن بيده شفاء الناس ولا إحياء الموتى، وقد روي عنه في ذلك ما يرد هذا المعنى من وجوه.

فمن ذلك ما رواه أحمد في مسنده وابن ماجة في سننه عن عثمان بن حنيف، أن رجلا ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "ادع الله أن يعافيني، فقال: "إن شئت دعوت لك، وإن شئت أخرت ذاك، فهو خير".

وعن أبي هريرة قال: "جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبها لمم، فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يشفيني قال: "إن شئت دعوت الله لك فشفاك وإن شئت فاصبري ولا حساب عليك".

وعلى الجملة فالأخبار على هذا المعنى مستفيضة لا يجحدها جاحد، وقد ترى أنه لم يقل لمن جاءه: إن شئت نزعت عنك المرض، وإنما خيرهم بين الصبر والدعاء، فدلّ ذلك على أنه لم يكن يملك من الأمر شيئا إلا ما مكنه الله منه على وفق حكمته فافهمه.

وشيء آخر، ما كان من فلق موسى البحر هربا من فرعون وملئه، ولو أن ما زعمه المشركون كان يصح لكان له في صد عادية خصومه مندوحة عن فلق البحر، ولكان لنبي الله محمد صلى الله عليه وسلم في إحياء الموتى والخلق بإذن الله غنية عن محاربة مشركي العرب

والعجم وتكلّف المشقة في سبيل ذلك، فبيّن إذن أن معجزات الأنبياء خاصة لا عامة، وأنهم لا يملكون إلا ما رخص لهم الله فيه لحكمة، إذ كانت المعجزة خرقا للعادة، وما كان هذا شأنه فهو استثناء من أصل مطرد يحصل لسبب يقتضيه، لا أن النبي يقدر عليه أبدا، أو أنه يخرق العادة كما شاء متى شاء بما شاء، وإذا كان الأمر على ذلك في الأنبياء فأولى في غيرهم من الأولياء.

وإذ لا شك فيه، فاعلم أن تعميم الخاص في هذا الباب شرك وسفسطة، إذ لو صح ما ادعاه المشركون في هذا لصح أن يكون لكل نبي و وليّ قدرة على الخلق مثلا، فيكون حينئذ خالقا بما أمده الله من القدرة، وهذا ضرب من الألوهية، وليس يخرج أحد عن هذا الإلزام إلا بأن يقر بأن الله هو الخالقُ لا النبيّ، فيكون للنبي خصوصية في الإعانة لا في القدرة فافهم هذا، فإنه علم نافع.

واعتبر بمثل عيسى عليه السلام فإنه كان مفتقرا لربه أبدا، ولم يكن له قدرة مودعة فيه على الخلق والرزق وغير ذلك من صفات رب الأرباب، وإنما كان يشكل الشيء فيخلقه الله لتتم له المعجزة بمعونة ربه له، لا باستغنائه عنه.

قال تعالى: {ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله}.

وقال: {وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني}.

قال ابن عادل في اللباب: "قال بعض المتكلمين: دلت الآية على أن الروح جسم رقيق، كأنه الريح؛ لأنه وصفها بالنفخ، ثم هاهنا بحث، وهو أنه هل يجوز أن يقال: إنه – تعالى – أودع في نفس عيسى – عليه السلام – خاصية، بحيث إذا نفخ في شيء كانت نفخته فيه موجبة لصيرورة ذلك الشيء حيا؟

ويقال: إن الله – تعالى – كان يخلق الحياة في ذلك الجسم بصورته، عند نفخ عيسى على سبيل إظهار المعجزات، وهذا الثاني هو الحق؛ لقوله تعالى: {الذي خلق الموت والحياة} [الملك: ٢]، وقال إبراهيم عليه السلام لمناظريه: {ربي الذي يحيي ويميت} [البقرة: ٢٥٨] فلو حصل لغيره هذه الصفة لبطل ذلك الاستدلال وقوله: {بإذن الله} معناه: بتكوين الله وتخليقه؛ لقوله تعالى: {وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله} [البقرة: ١٤٥] أي بأن يوج الله الموت".

وقال الكرجي القصاب في نكت القرآن: "قوله في عيسى، صلى الله عليه وسلم: {ورسولا إلى بني إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير} دليل على أن من وضع الكلمة موضع غيرها، لا يكون كاذبا إذ لا يشك أحد من المسلمين أن عيسى ليس بخالق، وإنما أراد – والله أعلم – أنى أصور لكم صورة طير، فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله – أي بإطلاق الله – لا محالة لا بعلمه كما تزعم القدرية: أن الإذن بمعنى العلم، إذ لو كان {فيكون طيرا بإذن الله} بمعنى علمه، لا بإطلاقه لكان خالق الطير عيسى لا ربه، إذ كان، جل وتعالى، لا يخلق بعلمه إنما يخلق بقدرته، ويدبر بعلمه، وهذا من قولهم: هي النصرانية بعينها، بل زيادة عليها".

وإذ قد عرفت هذا الفرق، فاعلم أن ما يجب على أصول هؤلاء المشركين أن لا يقبح من المرء الطلبُ من وليّ أو نبيّ شيء قط، لأنه إنما طلب منه ما قد يقدر عليه من الخلق والإماتة والإحياء والرزق والتدبير.

فإن قيل: الولاية التكوينية مقيدة بإذن الله.

قلنا: فمن أين لنا بمعرفة ذلك إن لم يخبرنا الله بمقدار ما أذن به، ومهما حصلت الشبهة لم يكن من طلب من وليّ شيئا من خصائص الله مشركا، لأنه إنما سأله ما ظنه يقدر عليه من الخلق والشفاء والتحكم في الكون، وعلى هذا، فليس في الناس مشرك، لأن أحدا لا يعجز عن دعاء أحد من الناس وادعاء أنه ولي من الأولياء، وأن له قدرة خارقة للعادة، ولو كان الأمر كذلك لما بقي في الوجود كفر ولا شرك، ولما كان لرب الأرباب شيء يختص به عن عباده، ولاستغنى الناس بسؤال الأولياء والأنبياء والملائكة عن سؤال ربهم، فهذا فيما احتج به المشرك من المعجزات والكرامات.

وأما احتجاجه بالأشخاص في هذا، فقد عقل كل ذي عقل أن ليس كلامهم حجة في التوحيد، ولا ينقض ما ثبت بالعقل والقرآن والسنة بكلام أحد ولو كان صحابيا، ومع هذا، فأنا أذكر لك ما يدل على جهل هذا المعترض بأصول القدماء وعقائدهم، وذلك قوله صلى الله عليه وسلم لرجل لدغته العقرب: "أما إنك لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضرك".

قال إمام الأئمة أبو بكر بن خزيمة في كتاب التوحيد: "أفليس العلم محيطا يا ذوي الحجا؟ أنه غير جائز أن يأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالتعوذ بخلق الله من شر خلقه؟ هل سمعتم عالما يجيز، أن يقول الداعي: أعوذ بالكعبة من شر خلق الله؟ أو يجيز أن يقول: أعوذ بالصفا

والمروة، أو أعوذ بعرفات ومنى من شر ما خلق الله، هذا لا يقوله ولا يجيز القول به مسلم يعرف دين الله، محال أن يستعيذ مسلم بخلق الله من شر خلقه".

وقال ابن عبد البر الأندلسي في شرح الحديث: "وفي الحديث من الفقه أن كلام الله عز وجل غير مخلوق، وعلى ذلك أهل السنة أجمعون وهم أهل الحديث والرأي في الأحكام، ولو كان كلام الله أو كلمات الله مخلوقة ما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا أن يستعيذ بمخلوق، دليله قول الله عز وجل: {وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا}".

فقد ترى كيف احتجوا بقبح اللازم على فساد الملزوم، وليس بين الاستعاذة والاستغاثة وكل ما جرى مجراهما فرق.

نجز والحمد لله.
كتبه: بأس الفرد.